ملامح منهج التفسير العقلي عند السلف.
مجاهد بن جبر المكي (أنموذجاً)

د. صلاح الدين عوض محمد إدريس
أستاذ مشارك –جامعة القاسمية بالشارقة
الأمارات العربية المتحدة

يهدف البحث إلى بيان أن المنهج العقلي لفهم نصوص القرآن الكريم قد ظهر في عصر السلف، ولم يكن يترتب عليه تكفير ولا تضليل؛ بل ظل بعض العلماء من بعد يأخذون بالأقوال التي فسرت بهذا المنهج، ومنهم من يرجحها على بقية الأقوال، ومنهم من يرد عليها بصورة علمية منهجية.

كُتِبَ البحث بالمنهج الاستقرائي، إذ تم تطبيق كثير من قواعد التفسير والأصول واللغة على مسائله؛ لأن طبيعة الدراسة تمزج بين أساليب التفسير التحليلي والموضوعي والمقارن.

تناول البحث محاور رئيسية منها: ما يتعلق بحياة مجاهد بن جبر المكي وتأثيرها في تكوينه الفكري والعقدي والفقهي، وموقف العلماء منه مدحاً أو قدحاً.

كما تناول قضية المسخ التي حدثت لبني إسرائيل هل هي مسخ على الحقيقة؛ أي، وقع مسخ الهيكل الجسدي؟ أم وقع المسخ للقلوب والعقول؟

وتناول البحث أيضاً قضية حقيقة الميزان والتي هي قضية عقدية؛ فهل هو ميزان على الحقيقة له كفتان ولسان؟ أم المعنى مجازي يراد به العدل والحكم والقضاء؟

وقد توصل البحث إلى أن المنهج العقلي ظهرت ملامحه بقوة في تفسير السلف في قضايا عقدية وفقهية وكونية؛ مما ترتب عليها اختلاف تناقض وتضاد، ومع هذا لم يقع تكفير ولا تضليل ولا تبديع بين العلماء، كما هو مشاهد في هذا العصر.

مقدمة:

كثر الجدل حول التفسير العقلي للنص القرآني، ويذهب بعض المفسرين أنه بدعة من بدع الفرق الضالة ظهر في القرون المتأخرة، ولكن الواقع يشهد أن للمنهج العقلي ملامح في عصر السلف ، تم استخدامه في مسائل العقيدة والفقه والقضايا الكونية.
وبالرغم من الاختلاف المترتب على فهم نصوص القرآن الكريم بناء على المنهج النقلي الأثري القائم على الرواية والمنهج الاجتهادي العقلي القياسي القائم على الدراية إلا أن روح أدب الاختلاف بين العلماء كانت هي السائدة في العصور الأولى للإسلام.
وقد ظهرت اتجاهات حديثة ترى أن استخدام العقل وما يتعلق به من مجاز من البدع المنكرة وترتب عليه تكفير وتضليل وتفسيق.
فهذا البحث يرمي إلى بيان ملامح المنهج العقلي الاجتهادي عند السلف وفي مقدمتهم مجاهد بن جبر المكي الذي يوصف بأنه أفضل المفسرين، ويرمي إلى بيان كيف أن كوكبة من علماء المسلمين عبر العصور تبنت كثيراً من اجتهادات مجاهد بن جبر القائمة على العقل ونصرتها. خاصة قضية المسخ وقضية ميزان يوم القيامة.

مشكلة الدراسة:

يسود الأوساط العلمية أن المنهج العقلي لفهم القرآن الكريم من البدع المستحدثة ولم يكن عند السلف، خاصة في مسائل الاعتقاد، وترتب على ذلك- عند البعض- تكفير وتضليل من يحاول فهم النص القرآني بناء على المنهج العقلي؛ ومن هنا يرى الباحث ضرورة الوقوف على موقف السلف من المنهج العقلي في التفسير.

الأهداف والأهمية:

تتمثل في الآتي:-

أولاً: بيان أن ملامح المنهج العقلي الاجتهادي القائم على الدراية ظهر في عصر السلف.

ثانياً: توضيح أن بعض علماء السلف أعطوا للعقل مكانة في تفسير نصوص القرآن الكريم.

ثالثاً: إبراز أن ظاهرة التكفير لكل من قال في القرآن برأيه لم تكن معروفة عند علماء السلف، فقط كان يرفض بعضهم التفسير العقلي من باب فقه الورع.

منهج الدراسة:

اتبع الباحث في دراسته المنهج الاستقرائي إذ استخدم قواعد التفسير والأصول في المقارن والموازنة بين أقوال العلماء، ومن ثم الجمع أو الترجيح، كما مزج بين أسلوب التفسير التحليلي والموضوعي والمقارن.

حدود البحث:

يقع البحث في دائرة نصوص الكتاب والسنة وأقوال المفسرين وعلماء اللغة وأصول الفقه؛ لأن طبيعة البحث تقتضي ذلك.

الدراسات السابقة:

لم أعثر على دراسة تبحث عن ملامح المنهج العقلي عند السلف، وما عثرت عليه رسالة دكتوراه بعنوان" مجاهد بن جبر ومنهجه في التفسير" وهي بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه من محمد عبد الله دفع الله، والفرق بينها وبين هذا البحث أن هذا البحث يركز على إثبات أن من السلف من فسر القرآن الكريم بناء على المنهج العقلي.

خطة البحث:

ويحتوي البحث على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة:

المقدمة واشتملت على: أهداف البحث- حدود البحث- الدراسات السابقة- منهج البحث- خطة البحث.

المبحث الأول: مولده ونسبه ومكانته العلمية وشيوخه وتلاميذه

ويضم ثلاثة مطالب هي:-

المطلب الأول: مولده ونسبه.

المطلب الثاني. مكانته العلمية.

المطلب الثالث: شيوخه وتلاميذه.

المبحث الثاني: المسخ إلى قردة وخنازير

ويضم ثلاثة مطالب هي:-

المطلب الأول: القائلون بمسخ الأجساد

المطلب الثاني: القائلون بمسخ القلوب والعقول.

المطلب الثالث: الجمع أولى من الترجيح.

المبحث الثالث: حقيقة الميزان وما يوزن.

ويضم ثلاثة مباحث هي:-

المطلب الأول:قول الجمهور.

المطلب الثاني: قول مجاهد.

المطلب الثالث: أصحاب الجمع بين القولين.

خاتمة والتوصيات.

المبحث الأول
مولده ونسبه ومكانته العلمية وشيوخه وتلاميذه

المطلب الأول: مولده ونسبه:

هو مجاهد بن جبر: المكي أبو الحجاج المخزومي المقري مولى السائب بن أبي السائب، (١)، ولد سنة إحدى وعشرين. (٢)وقال ابن حبان: مات بمكة سنة ثنتين أو ثلاث ومائة، وهو ساجد، وكان يَقُص. ولد في خلافة عمر، ومات قبل ابن الزبير بيسير.(٣)

يتضح من نشأته أنه تعلم في مدرسة مكة على يد ابن عباس ψ، ومدرسة الكوفة على يد ابن مسعودτ؛ فالمزج بين المدرستين ساهم في تكوين شخصيته العلمية والفكرية؛ خاصة مدرسة ابن مسعود التي اشتهر بعض تلاميذها بالرأي، وكانت نواة لمذهب الأحناف.

المطلب الثاني: مكانته العلمية:

أولاً: توثيق العلماء له

أحد الأئمة الأعلام، أخرج له الجماعة. وهو ثقةٌ ثبتٌ جبلٌ، وثَّقَهُ ابن معين، وأبو زرعة، وغيرهما. قال قتادة: "أعلم من بقي بالتفسير مجاهد".(٤)، لم يدرك النبي، وسمع من عائشة رضي الله عنها.(٥)

وقال أبو عبيد الآجري: قلت لأبي داود: مراسيل عطاء أحب إليك أم مراسيل مجاهد؟ قال: مراسيل مجاهد، عطاء كان يحمل عن كل ضَرْب.(٦)

ويرى سلمة بن كهيل أن لا أحد يريد بعلمه وجه الله تعالى إلا عطاء وطاوسا ومجاهدا. وذكر عن مجاهد أنه قال:" لو كنت قرأت على قراءة بن مسعود لم أحتج

(١) ينظر: أبو إسحاق الحويني، نثل النبال بمعجم الرجال ، ٣/ ١٠٧.
(٢) ينظر: أبو الإمداد، برهان الدين المالكي بَهْجَة المحَافِل وأجمل الوَسائل بالتعريف برواة الشَّمَائل، ٢/ ٢٣٨.
(٣) ينظر: أبو الإمداد، المصدر نفسه، ٢/ ٢٣٩. وينظر: بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ١٠/ ٤٣.
(٤) ينظر: أبو إسحاق الحويني، مصدر سابق، ٣/ ١٠٧.
(٥) ينظر: ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٨٩.
(٦) ينظر: أبو الإمداد، مصدر سابق، (٢/ ٢٣٨).

أن أسأل بن عباس عن كثير من القرآن، وذكر مجاهد أنه عرض على ابن عباس القرآن ثلاث عرضات يقف عند كل آية يسأل عنها ابن عباس فيم نزلت وكيف كانت"، وكان يأخذ بركاب ابن عمر، ويرى قتادة أن مجاهداً أعلم من بقي من السلف بالتفسير.

و كان ثقة فقيها عالما كثير الحديث و كان ورعا عابدا متقنا ، وكان قارئا عالما قال العجلي مكي تابعي ثقة.

ويرى الذهبي أن الأمة أجمعت على إمامة مجاهد والاحتجاج به. (١)؛ وبالرغم من أنه أقل تلاميذ ابن عباس رواية عنه إلاَّ أنه أوثقهم.(٢)

ويوصف بالعالم الحبر ذو الأحلام والصبر، متمكن في التأويل والتفسير والأقاويل والتذكير.(٣)شهد العلماء النقاد بعلو مكانته في التفسير، فقال الثوري: "إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك، واعتمد على تفسيره الإمام الشافعي والإمام البخاري، "وفي تفسيره نجد كثيرا من التفسيرات المجازية والمشبهة، وكان بعض تفسيره يقرأ بتحفظ، ذلك لأنه كان كثيرا ما يستشير علماء النصارى وأحبار اليهود وأما في حقل الفقه فقد جعل "للرأي" منزلة هامة. وقد نقل الطبري من هذا التفسير حوالي ٧٠٠ مرة في مواضع مختلفة، عن طريق الرواية وعن طريق تفاسير أخرى.(٤)

يفهم مما مضى أنه جمع بين الصفات الفكرية العلمية المتمثلة في الثقة والضبط والتفوق على علماء التابعين، وبين الصفات الأخلاقية المتمثلة في الإخلاص والورع والعبادة؛ والجمع بين تلك الشروط العمية والآداب الأخلاقية مكنه من تفسير القرآن الكريم بمنهجية أسست لمدرسة التفسير العقلي المحمود من بعده.

ثانياً: المعترضون على مجاهد:

يرى الأعمش أن بعض الناس يطعن في تفسير مجاهد بحجة أنه كان يسأل أهل الكتاب، وأن ما رواه عن علي وابن عباس من المراسيل، وقد ذكر الترمذي في علله أن مجاهداً معلوم التدليس فعنعنته لا تفيد الوصول ولا تفيد وقوع الواسطة بينه وبين ابن عباس. (٥)

ويرى من ينتقده من أهل الورع أن سبب الإعراض عن تفسيره ولومه يعود إلى أمرين هما:-

الأمر الأول: كان يسأل أهل الكتاب.

---

(١) ينظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ١٠/ ٤٣.
(٢) ينظر: عادل نويهض، معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»، ٢/ ٤٦٣.
(٣) ينظر: أبو نعيم أحمد الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٣/ ٢٧٩.
(٤) ينظر: عادل نويهض، مصدر سابق، (٢/ ٤٦٣)
(٥) ينظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ١٠/ ٤٤.

الأمر الثاني: اتبع منهج التفسير بالرأي بحرية واسعة؛ فقد روي عن ابن مجاهد أنه قال: قال رجل لأبي: أنت الذي تفسر القرآن برأيك؟ فبكى أبي ثم قال: إني إذن لجريء، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلاً من أصحاب النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ - ورضي عنهم.(١)

قال أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ، : قُلْتُ لِلْأَعْمَشِ: " مَا لَهُمْ يَتَّقُونَ تَفْسِيرَ مُجَاهِدٍ؟ قَالَ: كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ يَسْأَلُ أَهْلَ الْكِتَابِ "، و كَانُوا يَرَوْنَ أَنْ مُجَاهِدًا يُحَدِّثُ عَنْ صَحِيفَةِ جَابِرٍ.(٢)

وقد اتبع مجاهد منهج التفسير العقلي بحرية واسعة في فهم بعض نصوص القرآن إذ يأخذ بالتشبيه والتمثيل، وقد أسس المعتزلة منهجهم العقلي في فهم النصوص بناء على ما ذهب إليه مجاهد؛ بل وقد تأثر بهذا المنهج ابن جرير الطبري في تفسيره.(٣)

فسؤال مجاهد لأهل الكتاب لا يقدح في علمه ولا إمامته في التفسير؛ لأن سؤاله كان في حدود الأخذ العلمي خاصة وهو تلميذ ابن عباس الذي كان يحذرهم من الأخذ من أهل الكتاب، بناء على الأمر الوارد عن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، وكان بن عمر يقول لمجاهد: وددتُ أن نافعاً يحفظ حفظك.(٤)

وهو أحد القائلين بالمذهب العقلي في التفسير، وكان كثير الأسفار إلى الأماكن المختلفة ليقف عليها بنفسه، مثل هاروت وماروت و" بئر برهوت".(٥)

إن وقوفه على الأماكن الوارد ذكرها في القرآن الكريم ليتبين معانيها يدل على أنه كان يتبع المنهج الحسي بجانب المنهج العقلي والأثري؛ فالمزج بين هذه المناهج حقق له الريادة في مجال التفسير.

و في إشارته في رده على من اتهمه بالتفسير بالرأي أن تفسيره أخذه من عدد من الصحابة، دليل على أن ملامح منهج التفسير العقلي كانت بادية عند بعض أصحاب رسول الله ε.

المطلب الثالث: شيوخه وتلاميذه

أولاً: شيوخه:

(١) ينظر: الماتريدي، تأويلات أهل السنة، ١/ ٢٤٣، ٢٤٤، وينظر: شمس الدين الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ٣/ ٤٣٩.

(٢) ينظر: ابن سعد ،الطبقات الكبرى، ٥/ ٤٦٧، وينظر: شمس الدين الداوودي المالكي، طبقات المفسرين،٣٠٨/٢.

(٣) ينظر: محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ٨١/١، وينظر: عادل نويهض، مصدر سابق، ٢/ ٤٦٢.

(٤) ينظر: الذهبي، ميزان الاعتدال، ٣/ ٤٤٠.

(٥) ينظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ١/ ٧١.

روى عن علي وسعد بن أبي وقاص والعبادلة الأربعة ورافع بن خديج وأسيد بن ظهير وأبي سعيد الخدري وعائشة وأم سلمة وجويرية بنت الحارث وأبي هريرة وأم هاني بنت أبي طالب وجابر بن عبد الله وعطيه القرظي وسراقة بن مالك بن جعشم وعبد الرحمن بن أبي ليلى وقائد السائب وعبد الله بن السائب المخزومي وأبي معمر عبد الله بن سخبرة وعبد الرحمن بن صفوان بن قدامة وأبي عياض عمرو بن الأسود ومورق العجلي وأبي عياض الزرقي وأبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود وأم كرز الكعبية وخلق كثير.(١)

رواياته عن هذا العدد الكبير من الصحابة تجعل لتفسيره قيمة علمية، تمنع من اتهامه بالقول بالرأي المذموم.

ثانياً: تلاميذه:

روى عنه أيوب السختياني وعطاء وعكرمة وابن عون وعمرو بن دينار وفطر بن خليفة وأبو إسحاق السبيعي وأبو الزبير المكي ويونس بن أبي إسحاق وقتادة وعبيد الله بن أبي يزيد وأبان بن صالح وبكير بن الأخنس وحبيب بن أبي ثابت والحسن بن عمرو الفقيمي والحسن بن مسلم بن يناق والحكم بن عتيبة وزبيد اليامي والعوام بن حوشب وسلمة بن كهيل وسليمان الأحول وسليمان الأعمش ومنصور وسيف بن سليمان ومسلم البطين وطلحة بن مصرف وعبد الله بن كثير القاري وعبد الكريم بن مالك الجزري ومزاحم بن زفر وعبدة بن أبي أمامة وعثمان بن عاصم أبو حصين وعثمان أبو المغيرة وعمر بن ذر وآخرون.(٢)

يرى الباحث أن هذه الجمهرة من تلاميذه لابد وأن يكونوا قد تأثروا بمنهجه العقلي وهم يعدون من جيل التابعين أو تابعي التابعين والكل يمثل مرحلة السلف.

المبحث الثاني
المسخ إلى قردة وخنازير

تقع مسألة المسخ في دائرة السنن الكونية المتعلقة بالعقوبات الإلهية، ولها تشابه مع نظريات ظهرت من بعد فيما يعرف بنظرية دارون حول النشؤ والتطور. فما جاء

(١)ينظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب (١٠/ ٤٢)، وينظر: أبو الإمداد، مصدر سابق، ٢/ ٢٣٨.
(٢) ينظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب (١٠/ ٤٢)

فيها من نصوص كان محل اختلاف تناقض وتضاد بين السلف امتد إلى كل علماء التفسير إلى هذا العصر الحديث، وكان لرأي مجاهد فيها وزن بنى عليه كثير من علماء الأمة فهمهم للنص القرآني.

قال الله Y:چڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ چ[البقرة:٦٥].

اختلف العلماء حول حقيقة المسخ هل هو حقيقي؟ أم مجازي؟ ويمكن تناول ذلك في المطالب الآتية:

المطلب الأول: القائلون بمسخ الأجساد

قال به قتادة والسدي وكثير من علماء التفسير من بعدهم، واستدلوا لقولهم بالأدلة الآتية:

الدليل الأول: تفسير القرآن بالقرآن

يرى الطبري أن الآية (٦٥) في سورة البقرة يفسرها قول الله Y:چ چ چ چ چ چ ڈ ڈ چ[الأعراف:١٦٦]. وقوله:چڈ ڈ ڈ ڈ ڌ ڌ ڌ چ چ چ چ چ چ چ چ چ چ[المائدة:٧٨] فهذه اللعنة التي جاءت على لسان داود وعيسى عليهما السلام هي مسخ هذا الصنف إلى قردة مسخاً على الحقيقة لا المجاز.(١)

الدليل الثاني: الشواهد الحسية

يرى الطبري أن الصنف الذي عصى الله وتمرد عن أمره واصطاد الحيتان يوم السبت بحيل غير شرعية هم من قال الله Y فيهم:چک ک گ گ گ چ.فصاروا قردة لها أذناب، تعاوي بعد ما كانوا رجالا ونساء.(٢) وقول مجاهد مخالف لظاهر القرآن الكريم في كثير من نصوصه التي وردت في مواقع أخرى والتي تبين ما حدث لبني إسرائيل من الأمور الخارقة والتي في غرابتها أشد من حادثة مسخ بني إسرائيل إلى قردة ومنها:

حادثة الصعق عندما قالوا :چۇ ۇ ۆ چ[النساء: ١٥٣].

وحادثة الابتلاء بالتيه عند رفضهم دخول الأرض المقدسة فقالوا لنبيهم: چ پ پ پ ٹ ٹ ٹ ٹ چ[المائدة:٢٤] وغير ذلك من الحوادث، فكل من يقر بجزء من هذه الخوارق وينكر حادثة المسخ مطالب بالدليل الذي حمله على التفريق بين هذه الحوادث.(٣)

الدليل الثالث: مخالفة الحجة من العلماء.

---

(١) ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ٢/ ٦٣.

(٢) ينظر: الطبري، المصدر نفسه، ٢/ ٦٣.

(٣) ينظر: الطبري، المصدر نفسه، ٢/ ٦٣.

يرى الطبري أن ما ذهب إليه مجاهد يخالف قول الحجة من العلماء الذين لا يجوز عليهم الخطأ والكذب في ما أجمعوا عليه من نقل، وفي إجماعهم دليل كاف على تخطئت قول مجاهد.[١]

ويرى ابن الجوزي أن القول بالمسخ الحقيقي الصوري البدني هو قول الجمهور، وقول مجاهد الذي يرى أن المسخ وقع للقلوب والعقول فقط، ولم تمسخ أبدانهم قول بعيد.[٢]

ويرى القرطبي أن ما جاء عن مجاهد بأن المسخ كان للقلوب والعقول فقط ولم يكن للأبدان لم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم.[٣]

وذهب السمعاني في تفسير قوله:چ ک گ گ چ إلى أن هَذَا أَمر تكوين لَيْسَ لْلعَبد فِيهِ صنع وَلَا اخْتِيَار.[٤]

الدليل الرابع: السياق.

يرى الكرماني أن قول الجمهور أظهر، والغريب قول مجاهد؛ بدليل السياق في قوله:چ ڳ ڳ چ.[٥]فكأن الكرماني يرى أن مسخ القلوب والعقول الذي يقول به مجاهد أمر غير ظاهر ولا تتحقق منه العظة والعبرة، وإنما تتحقق العظة والعبرة بالمسخ الحقيقي الذي يحول جسم الآدمي إلى جسم قرد وخنزير، فيراه الناس أمامهم رأي العين.

المطلب الثاني: القائلونبمسخ القلوب والعقول

قال به مجاهد وكثير من العلماء من بعده، إذ يرون أن المسخ لم يقع لأجسادهم؛ إنما هو مثل ضربه الله لهم مثل ما ضرب مثل الحمار يحمل أسفارا، أي ليس مسخاً على الحقيقة ولكن مسخت قلوبهم وعقولهم فصارت طباعهم تشبه طباع القردة والخنازير.[٦]

ولهذا الفريق أدلة وحجج ترجح قول مجاهد و هي:

أولاً: تناقض وتضارب الروايات التي وردت في مصير الذين مسخت أجسادهم وتتمثل في قولين هما:

القول الأول: هلاك مسخ القردة والخنازير

(١) ينظر: الطبري، المصدر نفسه، ٢/ ٢٦٤- ٢٦٦.
(٢) ينظر: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ١/ ٧٤.
(٣) ينظر: أبو عبد الله القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، ١/ ٤٤٣.
(٤) ينظر: أبو المظفر السمعاني ، تفسير القرآن، ١/ ٩٠.
(٥) ينظر: أبو القاسم برهان الدين الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل، ١/ ١٤٥، ١٤٦.
(٦) ينظر: الطبري، مصدر سابق، ٢/ ٦٥.

جاء في رواية مسلم ما يثبت هلاك المسخ إذ لا توالد ولا تناسل، وفيها «إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلًا وَلَا عَقِبًا، وَقَدْ كَانَتِ الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ قَبْلَ ذَلِكَ».(١)وقال ابن عباس: مكثوا ثلاث أيام ينظر إليهم الناس ثمّ هلكوا ولم يتوالدوا ولم يتناسلوا ولم يمكث مسخ فوق ثلاثة أيام. وقال مقاتل: عاشوا سبعة أيام يعرف الكبير بكبره والصغير بصغره، ثمّ ماتوا.(٢)

القول الثاني: تناسل مسخ القردة والخنازير

احتج أبو بكر بن العربي برواية البخاريإذ يرى أنهم عاشوا ولهم أولاد، وأن القردة الموجودين الآن من نسلهم. (٣)ورواية البخاري هي: عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، قَالَ: «رَأَيْتُ فِي الجَاهِلِيَّةِ قِرْدَةً اجْتَمَعَ عَلَيْهَا قِرَدَةٌ، قَدْ زَنَتْ، فَرَجَمُوهَا، فَرَجَمْتُهَا مَعَهُمْ» "(٤). ويرد ابن العربي على اعتراض متوهم وهو قد يقول البعض: هذا الحديث يفهم منه أن البهائم بقيت فيها معارف الشرائع حتى ورثوها خلفاً عن سلف إلى زمان عمرو، فالرد نعم هذا كان حادثاً لأن اليهود غيروا الرجم فأراد الله أن يقيمه في مسوخهم؛ لأن ذلك أبلغ في الحجة على من أنكر الرجم منهم إذ شهدت عليهم كتبهم وأحجارهم ومسوخهم؛ فيعلوا أن علم الله بكل شيء محيط وأن ما جاء به محمد حق.(٥)

والرواية الثانية: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «فُقِدَتْ أُمَّةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يُدْرَى مَا فَعَلَتْ وَلَا أُرَاهَا إِلَّا الْفَأْرَ، أَلَا تَرَوْنَهَا إِذَا وُضِعَ لَهَا أَلْبَانُ الْإِبِلِ لَمْ تَشْرَبْهُ وَإِذَا وُضِعَ لَهَا أَلْبَانُ الشَّاءِ شَرِبَتْهُ»(٦)

وهناك اعتراضات على هذا القول منها:

الاعتراض الأول: النسخ.

---

(١) مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب بيان أن الآجال والأرزاق بيد الله. ٤/ ٢٠٥٠، ٢٦٦٣، حديث رقم: ٢٦٦٣.

(٢) ينظر: أبو إسحق الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٤/ ٢٩٨)، وينظر: ينظر: الليث السمرقندي، بحر العلوم، ١/ ٦١.

(٣) ينظر: أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، ١/ ٣٩٨، وينظر: السمعاني، مصدر سابق، ١/ ١٤٥، ١٤٦.

(٤) محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، باب، القسامة في الجاهلية، ٢/ ٥٣٥، حديث رقم: ١٦٣٦.

(٥) ينظر: أبو بكر بن العربي ، أحكام القرآن، ٢/ ٣٣٢

(٦) صحيح مسلم باب، في الفأر وأنه مسخ، ٤/ ٢٢٩٤، حديث رقم: ٢٩٩٧

فكل الأحاديث المتفرقة التي رواها مسلم في آخر صحيحه أوَّلها العلماء، ومنهم ابن عطية وابن رشد وغير واحد من العلماء، بأنه مما قاله النبيء اجتهاداً وقت عدم وجود نص، فلما أوحى الله له "أَنَّ الْمَمْسُوخَ لَا يَعِيشُ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَلَا يَتَنَاسَلُ" كَمَا هُوَ صَرِيحُ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ نسخ القول الأول، أي: القول ببقاء الممسوخ؛ والدليل على صحة ما ذهب إليه هؤلاء العلماء بأنه اجتهاد - كما يرى ابن عاشور- في قَوْلِهِ: «وَلَا أُرَاهَا» التي يفهم منها معنى الاجتهاد، بجانب أن هذه الأنواع موجودة قبل قصة المسخ لبني إسرائيل. (١)

ويرى القرطبي ترجيح وصحة هذا القول الثاني؛ لأن الأحاديث التي وردت في مسخ الفأر والضب وغيرها تحمل على الظن والخوف والحدس منه قبل أن يأتيه وحي فيها بأن الله لم يجعل للمسخ نسلاً، فلما أوحي إليه بذلك زال عنه ذلك التخوف، وعلم أن الضب والفأر ليسا مما مسخ، وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرته وعلى مائدته ولم ينكر (٢)

الاعتراض الثاني: صحة السند وقطعية المتن.

يرى القرطبي أن هذا الكلام الذي أورده ابن العربي في كتابه الأحكام لا حجة فيه. وأن رواية البخاري عن رجم القردة من المقحمات في كتاب البخاري، والرواية المعتمدة عند البخاري ليس فيها لفظ" قد زنت"، وأما القصة بطولها فإنها تدور على عبد الملك بن مسلم عن عيسى بن حطان، وليسا ممن يحتج بهما. وهذا عند جماعة أهل العلم منكر، أي: إضافة الزنى إلى غير مكلف، وإقامة الحدود في البهائم. ولو صح لكانوا من الجن، لأن العبادات في الإنس والجن دون غيرهما". وفي كل ذلك دليل على صحة أنه لم يبق من المسخ قرد ولا ضب ولا غيره.(٣).

ويرى الباحث أن تباين مواقف العلماء حول هذه الروايات اتخذها حجة من رجح قول مجاهد على قول الجمهور.

ويرى أبو زهرة أن الجمهور أخذوا بظاهر الألفاظ واستغربوا قول مجاهد الذي رجحه ابن كثير، والصحيح- كما يرى أبو زهرة- قول مجاهد ؛ لأن جملة الأحاديث التي وردت في المسخ تفيد أن المثلية في النفوس لا في الأجساد، وكذلك اللفظ يحتمله.(٤)

ثانياً: اللغة:

(١) ينظر: ابن عطية، مصدر سابق،١/ ١٦٠، ١٦١، وينظر: ابن عاشور، مصدر سابق، ١/ ٥٤٥.
(٢) ينظر: القرطبي، مصدر سابق، (١/ ٤٤٠.
(٣) ينظر: القرطبي، المصدر نفسه، ١/ ٤٤١.
(٤) ينظر: محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ٥/ ٢٢٦٧.

يرى الفخر الرازي أن القول بمسخ صورهم مسخاً حسياً لهيكلهم الإنساني وليس بمعنى الطبع والختم على القلوب والعقول لا يسمى مسخا؛ لأن إبطال الهيكل المحسوس للإنسان وتبديله بتركيب القرد هذا يسمى إعداما وإيجاداً للقرد ولا يسمى مسخاً.

واستدرك البعض على هذا القول بأن تغير الهيكل الظاهري لا يعني تغير الجوهر؛ فالإنسان قد يعتريه الضعف والسمن في جسده، أي: يتغير هيكله الخارجي ويبقى باطنه كما هو؛ وهذا ما حدث لبني إسرائيل من مسخ حقيقي في هيكلهم الخارجي، مع بقاء صفات الإنسان في الجوهر.(١)

ثالثاً: الحجج العقلية.

ومنها ما أثاره الفخر الرازي من تساؤلات؛ إذ يرى أن القول ببقاء هذه القردة الممسوخة يفهم منه أن القردة في هذا الزمان قد تكون من نسل تلك الممسوخة وقد لا تكون منها، ولا يستبعد الفخر الرازي بأن الأمرين يجوزان عقلاً، ولكنه يرجح رواية ابن عباس التي ترى أن هذا الفصيل من القردة الممسوخة لم يعش إلا أياما معدودات ثم هلك.(٢)

ويرى صاحب المنار أن كل من يتجاوز حدود الله ويعتدي عليها بدافع الشره في حب الدنيا فجزاؤه أن يخرجه الله من محيط الكمال الإنساني، وينزل به إلى درجة البهيمية مثل القرد في نزواته والخنزير في شهواته، مثلما قال مجاهد. (٣).

ويرى المراغي أن فيما ذهب إليه صاحب المنار تأييد لرأى مجاهد وتفضيل له على رأى الجمهور. والآية عند الإمام ليست نصاً في رأي الجمهور، والنقل في هذا المسخ بالمعنى الحقيقي لو صح فالآية تفقد العبرة والموعظة للعصاة؛ لأن الناس يعلمون بالمشاهدة والحس أن كثيراً من العصاة لم يمسخهم الله قردة وخنازير ليخرجهم عن نوع الإنسان؛ لأن ذلك ليس من سنته في خلقه، فالعبرة الكبرى أن من سنن الله أن يرد من يخالف الشريعة من مرتبة الإنسان إلى درجة البهيمية، ويلحقه بعجماوات الحيوان، وسنة الله واحدة، فهو يعامل القرون الحاضرة بمثل ما عامل به القرون الخالية. (٤)

رابعاً: الأدلة الحسية

(١) ينظر: الفخر الرازي، مصدر سابق، ٣/ ٥٤١.
(٢) ينظر: الفخر الرازي، المصدر نفسه، ٣/ ٥٤١.
(٣) ينظر: محمد رشيد رضا ، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ١/ ٢٨٤، ٢٨٥.
(٤) ينظر: أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، ١/ ١٣٩.

يقدم من يرى قول مجاهد أدلة حسية واقعية تثبت وقوع المسخ المعنوي المتعلق بالقلوب والعقول ومن هذه الأدلة:

- قال القشيري:" مسخ هذه الأمة حصل على القلوب، فكما أنهم لما تركوا الأمر واستهانوا بما ألزموا به من الشرع- عجلت عقوبتهم بالخسف والمسخ وغير ذلك من ضروب ما ورد به النّصّ، فهذه الأمة من نقض العهد ورفض الحدّ عوقبت بمسخ القلوب، وتبديل الأحوال، قال تعالى: «وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ «١» » وعقوبات القلوب أنكى من عقوبات النفوس، وفى معناه أنشدوا:

يا سائلي: كيف كنت بعده؟ ... لقيت ما سائني وسرّه

ما زلت أختال في وصالي حتى ... أمنت من الزمان مكره

طال عليّ الصدود حتى ... لم يبق مما شهدت ذرّة.(١)

-بقاء الإنسانية المتمثلة في الفهم والعقل في الممسوخين.

ويرى الماتريدي أن قول الجمهور يفهم منه ذهاب الإنسانية منهم بالكلية جوهراً وعرضاً، ويفهم من قول مجاهد أن جوهرهم تحول إلى قردة مع بقاء الإنسانية فيهم، أي الفهم والعقل، والدليل على صحة قول مجاهد أنهم سمعوا وفهموا خطاب الصنف الذي وعظهم بعد أن وقع لهم المسخ فكانوا يجيبونهم بالإيماء ودموعهم تفيض على خدودهم، وهذا دليل على بقاء الفهم والعقل فيهم، فلو إنهم عدمتم منهم الإنسانية بالكلية ما فهموا ولا أجابوا ولا حزنوا على ما أصابهم.(٢)

قال البيضاوي:" وقال مجاهد ما مسخت صورهم ولكن قلوبهم، فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار في قوله تعالى: كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً " (٣)

يفهم من كلام البيضاوي أنه لا يعترض على قول مجاهد ولا يرجح عليه قول الجمهور؛ لأنه من رواد منهج التفسير بالرأي المحمود.

المطلب الثالث: الجمع أولى من الترجيح

ذهب بعض العلماء إلى محاولة الجمع بين القولين، ذلك أن قول الجمهور الذي يرى أن المسخ حقيقي قولهم له وجه، ومجاهد ومن وافقه الذين قالوا بالمعنى المجازي قولهم له وجه. ولهم حجج منها:-

أولاً: اختلاف القدرات البشرية:

يرى الراغب في قول الله Y:چ ک ک گ گ گ چأن للإنسان صورتان: صورة مدركة بالحاسة وهو هذا الشكل المخصوص المتمثل في القوة الشهوية والغضبية

(١) ينظر: عبد الكريم بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات = تفسير القشيري، ١/ ٩٧.

(٢) ينظر: الماتريدي، مصدر سابق،١/ ٤٨٨.

(٣) ينظر: ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ١/ ٨٥.

وبها يشبه البهائم؛ وصورة مدركة تتصف بقوة الفكر والتمييز والعقل وبهذه الصورة يشبه الملائكة.فإذا أمات قوته الغضبية والشهوية بقدر طاقته وربى قوته الفكرية شابه الملائكة كما في قوله I: چ ـ ئا ئا ئه ئه ئو ئو ئۇ چ[التحريم:٦]، فمن اعتبر هذه الصورة- يقصد مجاهد ومن قال بقوله- قال: هذا مثل ضربه الله لهم كقوله: چ ک گ چ، وقوىَّ ذلك بقوله: چ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ چ؛ ومن أمات قوته الفكرية، وربى قوته الغضبية والشهوية، وتعاطى ما وصف الله به الكفار، فقال: چ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ چ[محمد ١٢] وقال: چ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ چ[الأعراف:١٧٩]، يكون قد اعتبر الصورة الشكلية وفسر المسخ على الحقيقة، أي مسخوا على شكل القردة والخنازير.

ويرى الراغب أن ما ذهب إليه مجاهد من القول بتغيير الصور العقلية لا يعرفه إلا الخاصة من أولي البصائر والعقول الراجحة، وهو لهم أنفع وأردع، والقول بتغيير الصورة الحسية- وهو قول الجمهور- يشاركهم فيها العامة وأصحاب الحواس والذين لا يرتدعون إلاَّ بما تدركه حواسهم فتبهرهم وغيرهم.(١)

ثانياً: المسخ سنة بشرية.

يرى ابن عجيبة بناء على منهج التفسير الإشاري أن المسخ على ثلاثة أقسام: مسخ الأشباح، ومسخ القلوب، ومسخ الأرواح، فمسخ الأشباح هو الذي وقع لبني إسرائيل، قيل: إنه مرفوع عن هذه الآمة، والصحيح: أنه يقع في آخر الزمان، ومسخ القلوب يكون بالانهماك في الذنوب، والإصرار على المعاصي، وعلامته: الفرح بتيسير العصيان، وعدم التأسف على ما فاته من الطاعة والإحسان، ومسخ الأرواح: الانهماك في الشهوات، والوقوف مع ظواهر الحسيات، أو تكثيف الحجاب، والوقوف مع العوائد والأسباب، دون مشاهدة رب الأرباب. والله تعالى أعلم.(٢)

ويفهم من كلام ابن عجيبة أنه لا يستبعد وقوع المسخ بصورتيه الحقيقية والمجازية في كل الأمم ، وهو قول مؤسس على ما قال به مجاهد. وإن كان ابن عجيبة وجَّه معنى المسخ توجيهاً سلوكياً ينسجم مع منهجه الصوفي في التربية والسلوك؛ بل وأوجد مسخاً ثالثاً هو مسخ الروح.

ويرى القاسمي– نقلاً عن القاشانيّ- أن المسخ الحقيقي يقع في الدنيا والآخرة وردت به نصوص الكتاب والسنة، فكل من غَلَبَ عليه وصف من أوصاف الحيوانات، ورسخ فيه بحيث زال استعداده وتمكن في طبعه، وصار صورة ذاتية له، فحتماً صار طبعه طبع ذلك الحيوان. ونفسه نفسه، فصارت صفته صورته.(٣)

(١) ينظر: أبو القاسم الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن ، ١/ ٢١٩، ٢٢٠.
(٢) ينظر: أبو العباس بن عجيبة ، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ٢/ ٢٧٤، ٢٧٥.
(٣) ينظر: جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، ١/ ٣٢٣.

ثالثاً: تحقيق المقصد والواقع التاريخي

يرى ابن عاشور أن العبرة والعظة حاصلة في كلا الحالتين سواء أخذنا بقول الجمهور بأن المسخ وقع لأجسادهم مع بقاء الإدراك الإنساني، أو المسخ وقع لعقولهم وقلوبهم مع بقاء الهيكل الإنساني، ولكن قول الجمهور أظهر في العبرة لأنه يحمل اليهود على أن يعتبروا بأنفسهم وكذلك يعتبر الناس بهم، وقول مجاهد أقرب إلى التاريخ؛ لأنه لم ينقل أن هذا المسخ قد وقع في كتب العبرانيين، وقدرة الله صالحة للأمرين والكل معجزة لداود أو الشريعة؛ وَلِذَلِكَ قَالَ الْفَخْرُ: لَيْسَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ بِبَعِيدٍ جِدًّا لَكِنَّهُ خِلَافُ الظَّاهِرِ مِنَ الْآيَةِ وَلَيْسَ الْآيَةُ صَرِيحَةً فِي الْمَسْخِ.(١)

ويرى ابن عاشور أن العلة في تشبيههم بالقردة والخنازير يعود إلى أن فهمهم للشريعة ومقاصدها ومعانيها يقوم على الأخذ بظاهر الألفاظ، وتلك سمة العجماوات التي لا تدرك إلا المحسوس، وعليه فإن الفرق بينهم وبين العجماوات بالشكل الإنساني فقط، وهذا ما قصده مجاهد بأن المسخ حدث لقلوبهم وعقولهم لا إلى أجسادهم ولا ذواتهم.(٢)

ويرى الفخر الرازي أن الجمع بين القولين ممكن ولا نحتاج إلى ما ذهب إليه مجاهد من تأويل مع الإقرار بأن ما ذهب إليه غير مستبعد طالما أصر الإنسان على جهله بعد ظهور الآيات وجلا البينات فالعرف الظاهر في من هذا حاله أن يقال أنه قرد وحمار. (٣)

ويرى ابن عاشور أن القول بتناسل الممسوخ تسرب إلى اختلافات الفقهاء إذ يرى بعضهم حرمة أكل لحم الفيل والقرد والضب؛ لأنها من نسل الأمم الممسوخة، أي: أن أصلها أنسي. ولكن الإمام مالك جوز أكلها بناء على عموم آية المأكولات وهي قوله تعالى:ﭽ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ
ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﭼ[الأنعام:١٤٥]. (٤)

يقول ابن كثير:" قُلْتُ: وَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ عَنْ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ بَيَانُ خِلَافِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مُجَاهِدٌ، رَحِمَهُ اللَّهُ، مِنْ أَنَّ مَسْخَهُمْ إِنَّمَا كَانَ مَعْنَوِيًّا لَا صُورِيًّا بَلِ الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَعْنَوِيٌّ صُورِيٌّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.(٥)

ويرجح الباحث قول الجمهور بناء على أمرين هما:

---

(١) ينظر: الطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير، ١/ ٥٤٤.
(٢) ينظر: ابن عاشور، المصدر نفسه، ١/ ٥٤٥..
(٣) ينظر: الفخر الرازي، مصدر سابق، ٣/ ٥٤١.
(٤) ينظر: ابن عاشور، مصدر سابق، ١/ ٥٤٥.
(٥) ينظر: أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، تفسير القرآن العظيم، ١/ ٢٩١.

الأمر الأول: أن قضية المسخ تدخل ضمن القضايا الكونية والتي لا يمكن معرفة كنهها إلاَّ بتقدم العلم في مجال العلوم الكونية، وكل قول جاء فيها فهو مبنى على الظن والاجتهاد.

الأمر الثاني: أن العلم الحديث وما توصل إليه من حقائق لا ينكرها أحد تمكن من تطوير علم الهندسة الوراثية وزراعة الأعضاء، فإذا كان هذا البشر الضعيف يفعل العجائب فكيف بقدرة الله المطلقة؟

المبحث الثالث

حقيقة الميزان وما يوزن

تقع هذه المسألة ضمن مسائل العقيدة، ووقع الاختلاف فيها بين السلف والخلف وكل له حججه، وأول من قال بالمعنى المجازي فيها مجاهد وتبعه الأعمش والضحاك خلافاً للجمهور الذي يرى المعنى الحقيقي للميزان. كما وقع الاختلاف في الشيء الذي يوزن وهو اختلاف مترتب على الاختلاف حول حقيقة الميزان، ويمكن حصر الأقوال في هذه المسألة في المطالب الآتية:

المطلب الأول: قول الجمهور

قال تعالى: ﭽ ﮀ ﮁ ﮂﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﭼ[الأعراف:٨].

يرى الطبري أن الميزان هو الحسي الذي له كفتان ولسان، وهذا قول الجمهور ومن حججهم:

الدليل الأول: الأحاديث والأخبار المتظاهرة ومنها:

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ε: «لا يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ شَيْءٌ أَفْضَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ(١).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِε قَالَ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدُّ الْبَصَرِ فِيهَا خَطَايَاهُ وَذُنُوبِهِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِيزَانِ فَتُوضَعُ فِي كِفَّةٍ ثُمَّ يَخْرُجُ لَهُ بِقِرْطَاسٍ مِثْلَ هَذَا - وَأَشَارَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُقْرِئُ بِأُصْبُعِهِ وَأَمْسَكَ بِإِبْهَامِهِ عَلَى نِصْفِ أُصْبُعِهِ - الدُّعَاءِ فِيهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا

(١) أبو القاسم عبد الله بن بشْران البغدادي، أمالي ابن بشران - الجزء الثاني، ١/ ٢٨١، حديث رقم: ١٥٠٩

إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَيُوضَعُ فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى فَيَرْجَحُ مُسَبَّحُهُ بِخَطَايَاهُ وَذُنُوبِهِ» "(١). (2)

وهذا الحديث بجانب أنه يثبت أن الميزان حسي كذلك يحتج به الذين يرون أن الذي يوزن هو صحائف الملائكة التي كتبتها على العبد.

حديث رسول الله ع، إذ قال لبعض الصحابة وقد قال له يا رسول الله أين أجدك في القيامة؟ فقال «اطلبني عند الحوض فإن لم تجدني فعند الميزان» ، ولو لم يكن الميزان مرئيا محسوساً لما أحاله رسول اللهع على الطلب عنده.(٣)

نقل البغوي عن بعضهم أن الذي يوزن هم الأشخاص وليس الصحف واستدل لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِع قَالَ: " إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَءُوا، چ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ چ.(٤)(٥)

ولكن الخازن يرى أن هذا الحديث ليس فيه ما يدل على وزن الأشخاص في الميزان؛ لأن المراد بقوله لا يزن عند الله جناح بعوضة مقداره وحرمته لا وزن جسده ولحمه.(٦)

قال ابن عباس: يؤتى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان فعلى قول ابن عباس: أن الأعمال تتصور صورا وتوضع تلك الصور في الميزان ويخلق الله في تلك الصور ثقلا وخفة. (٧)

فقدفهم الخازن من قول ابن عباس أن الأعمال الحسنة والسيئة تتحول من صورتها المعنوية إلى صورة مادية مجسدة ثم توزن، وفي فهمه وما تأوله رد على مجاهد الذي يستبعد وزن الأشياء المعنوية.

ويرى الباحث أن هذه محاولة لإثبات أن الميزان حسي له كفتان ولسان؛ وهذه الأعمال معنوية فإن لم تجسد في صورة مادية تكون الحجة لمجاهد.

ويقول الخازن:" والصحيح قول من قال إن صحائف الأعمال توزن أو نفس الأعمال تتجسد وتوزن والله أعلم بحقيقة ذلك". (٨)

(١) أبو بكر محمد الكلاباذي البخاري ، بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، ١/ ٣٤٧.
(2) ينظر: الطبري، مصدر سابق، ١٠/ ٦٧.
(٣) ينظر: ابن عطية، مصدر سابق،٢/ ٣٧٥، ٣٧٦.
(٤) صحيح البخاري، باب: " أولئك الذين كفروا بآيات ربهم" ٦/ ٩٣، حديث رقم: ٤٧٢٩.
(٥) ينظر: البغوي، معالم التنزيل، ٣/ ٢٢١.
(٦) ينظر: الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ٢/ ١٨٣.
(٧) ينظر: الخازن، المصدر نفسه، ٢/ ١٨٣.
(٨) ينظر: الخازن، مصدر نفسه، ١٨٣/٢.

الدليل الثاني: قواعد أصول التفسير ومنها:-

القاعدة الأولى: " إذا تعذرت الحقيقة يصار إلى المجاز" .

يرى ابن عطية إن النظر في الميزان والوزن والثقل والخفة المقترنات بالحساب لا يفسد شيء منه ولا تختل صحته، وإذا كان الأمر كذلك فلم نخرج من حقيقة اللفظ إلى مجازه دون علة؟.(١)

القاعدة الثانية: قاعدة سد الذرائع:

قال القرافي رحمه الله" سَدُّ الذَّرَائِعِ ، وَمَعْنَاهُ : حَسْمُ مَادَّةِ وَسَائِلِ الْفَسَادِ ؛ دَفْعًا لَهَا ، فَمَتَى كَانَ الْفِعْلُ السَّالِمُ عَنْ الْمَفْسَدَةِ ، وَسِيلَةً لِلْمَفْسَدَةِ : مَنَعَ الإمام مَالِكٌ مِنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ.(٢)

يرى ابن عطية أن القول في الميزان من عقائد الشرع التي لا تعرف إلاَّ عن طريق النقل والسمع، فلو فتحنا باب التأويل والمجاز فإن الملاحدة والزنادقة سوف يرون أن الميزان والصراط والجنة والنار والحشر ونحوها من قضايا الغيب ألفاظ لا تؤخذ على ظاهرها، وهو القول المروي عن مجاهد والأعمش والضحاك وغيرهم. وكل ما روي عن الصحابة والتابعين من آثار توضح هيئة الميزان وطوله وأحواله لم تصح بالإسناد. (٣)

ويرى الشوكاني أن الأولى اتباع ما جاء في الأسانيد الصحاح التي تثبت أن الميزان حقيقي؛ لأنه سائغ من جهة اللسان، ولو فتح باب التأويل- كما يرى القشيري- لحمل البعض معنى الصراط على الدين الحق، والجنة والنار بمعنى الأرواح دون الأجساد، ولقالوا إن الشيطان والجن ترمز إلى الأخلاق الذميمة، والملائكة يقصد بها القوى المحمودة. فمن يرفض صورة الميزان الحقيقية بحجة أن العقل لا يقبلها فقد قبلتها عقول أقوى وأزكى من عقولهم من الصحابة والتابعين؛ وظهور البدع والتعصب والتمذهب هو الذي فتح باب التأويل في مثل هذه المسائل.(٤)

القاعدة الثالثة: قاعدة تقديم الحقيقة الشرعية على اللغوية عند التعارض.

يرى الزجاج أن الناس اختلفوا في ميزان يوم القيامة، فمن قال أنه العدل بنى قوله على عرف الناس من قولهم: " هذا في وزن هذا"، وإن لم يكن مما يوزن، وتأويله أنه قد قام في النفس مساوياً لغيره كما

(١) ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز،٢/ ٣٧٥، ٣٧٦.
(٢) القرافي، أنوار البروق في أنواء الفروق ، ٢/ ٣٢.
(٣) ينظر: ابن عطية، مصدر سابق،٢/ ٣٧٥، ٣٧٦.
(٤) ينظر: الشوكاني، فتح القدير، ٢/ ٢١٦، ٢١٧.

يقوم الوزن في مِرآةِ العَيْنِ. وقال بعضهم: الميزانُ الكتابُ الذي فيه أعمال الخلق، وهذا كله في باب اللغة - والاحتجاج سائغ، إلا أن الأوْلَى مِنْ هذا أن يُتبَعَ مَا جَاءَ بالأسانيد الصحاح. فإن جاءَ في الخبر أنه ميزان له كِفَّتَان، من حيث يَنقُلُ أهلُ الثقة، فينبغي أن يُقْبَلَ ذَلِكَ. وقد روي عن جرير عن الضحاك أن الميزانَ الْعدْلُ، والله أعلم بحقيقة ذلك، إلا أن جملة أعمال الْعِبَادِ مَوْزُونَةٌ على غاية العَدْل والحَق.(١)

الدليل الثالث: الحجة العقلية.

يصف الطبري بالجهل كل من ينكر الحقيقة الحسية للميزان التي نطقت بها نصوص الكتاب والسنة، ويعمد إلى التأويل بحجة أن الأعمال ليست أجسام حتى توصف بالثقل والخفة والكثرة والقلة، والحجة عليه أن الله يعلم هذه الأعمال حسنها وقبيحها ومقاديرها قبل خلقها وكونها، وتم نسخها في الكتاب المبين دون الخوف من نسيانها، وما وضعها في الميزان الحسي المعروف إلاَّ من باب إقامة الحجة على الناس،فمن ينكر ذلك ليس له من حجة أو عقل أو خبر، وقوله فاسد والحق والصواب ما قاله أهل الحق. ولو لا خشية الخروج عن مقاصد التفسير لرددنا على من أنكر المعنى الحسي للميزان بردود كثيرة. (٢)

الدليل الرابع: الواقع الحسي.

يرى الزمخشري أن تأكيد الحجة وإظهار النصفة وقطع المعارة لا يتم إلاَّ بالآتي:-

أولاً: الوزن الحقيقي لصحف الأعمال بميزان له لسان وكفتان، يقرؤونها في أرض المحشر.

ثانياً: يسألهم عن أعمالهم فتعترف بذلك أعضاؤهم وتشهد عليهم.

ثالثاً: تشهد عليهم الأنبياء والملائكة والأشهاد.

وقيل: هي عبارة عن القضاء السويّ والحكم العادل.(٣)

يفهم من كلام الزمخشري المعتزلي أنه يرى رأي جمهور العلماء في حقيقة الميزان؛ لأنه أورد قول مجاهد والأعمش والضحاك بصيغة التضعيف. وما استشهد به من شهادة الملائكة وشهادة الأعضاء وشهادة الملائكة حقيقة لا مجازاً يثبت أن ميزان يوم القيامة حقيقة لا مجازاً وهذه من المسائل القليلة التي وافق فيها الزمخشري أهل السنة في مسائل العقيدة.

---

(١) أبو إسحاق الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ٢/ ٣١٩.

(٢) ينظر: الطبري، مصدر سابق، ١٠/ ٧٠- ٧٣.

(٣) ينظر: الزمخشري ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ٢/ ٨٩.

ويتبنى القاسمي قول الجمهور ويرى وجوب الإيمان بحقيقة الميزان، فهو آلة شبهها الله للناس بما لهم من أنواع الموازين التي وضعت لمعرفة الزيادة والنقصان، ومنها في الدنيا:

ميزان القبان للأثقال.

ميزان الإسطرلاب لحركات الفلك والأوقات.

المسطرة للمقادير والخطوط.

العروض لمقادير حركات الأصوات.

وميزان الآخرة صورته تكون مقدرة للحس عند التشكيل، وللخيال عند التمثيل، والله تعالى أعلم بما يقدره من صنوف التشكيلات. والتصديق بجميع ذلك واجب.(١)

الدليل الخامس: إجماع الأمة.

يرى القرطبي أن الأولى أن يتبع ما جاء في الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان. وهو ما أجمعت عليه الأمة في الصدر الأول بضرورة الأخذ بمثل هذه المسائل على ظواهرها طالما صارت نصوصاً.(٢)

ويجزم الشنقيطي أن جماهير المسلمين سلفا وخلفا يرون أن الوزن يوم القيامة وزن حقيقي يتم بميزان له لسان وكفتان، ينظر إليه جميع الخلائق؛ ولكنهم اختلفوا في كيفية الوزن على ثلاثة أقوال يمكن الجمع بينها ولا يكذب بعضها بعضاً هي:

القول الأول: الموزون هو صحائف الأعمال؛ لأن كل إنسان له صحائف وكتاب فيه عمله الخاص به، تحتوي على نسخ فيها الأعمال الحسنة وأخرى فيها الأعمال السيئة ومن أدلتهم:-

١- قوله تعالى: چ ں ڻ ڻ ڻ ۀ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ے چ[الإسراء: الآيتان ١٣، ١٤].

٢- حديث البطاقة المشهور الذي أخرجه الترمذي وغيره وصححه(٣) (٤)

يرى الشنقيطي أن ما ذهبه إليه ابن فورك وغيره من المتكلمين من أن وزن حقيقة الأعمال مستحيل لأن ما ليس بجسم يستحيل أن يكون جسماً كلام لا يعول عليه؛ لأن قدرة الله لا تحدها حدود. فالتحقيق أنه وزن حقيقي بميزان ذي لسان وكفتين. (٥)

---

(١) ينظر: جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، ٥/ ٦-٨.

(٢) ينظر: القرطبي، مصدر سابق، ٧/ ١٦٥.

(٣) الترمذي، كتاب الإيمان، باب: ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، حديث رقم: (٢٦٣٩)، (٥/ ٢٤).

(٤) ينظر: الشنقيطي، العَذْبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ، ٣/ ٧١.

(٥) ينظر: الشنقيطي، المصدر نفسه، ٣/ ٧٣- ٧٥،

ويرى الشنقيطي أن المعتزلة الضالين اتبعوا مجاهدا والأعمش والضحاك- وهؤلاء الثلاثة قولهم باطل مخالف لما عليه أهل السنة والجماعة.(١)

المطلب الثاني: قول مجاهد

ذهب كثير من علماء الأمة من السلف والخلف إلى قول مجاهد في حقيقة الميزان والأشياء التي توزن يوم القيامة، ولهم أدلة وحجج يفهم منها أن الأمر كله يقوم على المجاز فالميزان وما يوزن يقصد به الحكم والقضاء والعدل، ومن أدلتهم وحججهم الآتي:

الدليل الأول: اللغة

يرى الفخر الرازي أن كثيراً من المتأخرين أخذوا بقول مجاهد والأعمش والضحاك في حقيقة الميزان المراد به العدل والقضاء؛ لأن هذا المعنى مقبول لغة.

قال الشاعر:

قد كنت قبل لقائكم ذا قوة ... عندي لكل مخاصم ميزانه

أراد عندي لكل مخاصم كلام يعادل كلامه فجعل الوزن مثلا للعدل. وبناء عليه فالمراد المعنى لا حقيقة اللفظ.(٢)

الدليل الثاني: الحقيقة اللغوية والعرفية.

يرى أبو السعود أن كثيراً من المتأخرين أخذوا بقول مجاهد والأعمش والضحاك ودليلهم على ذلك أن الحقيقة اللغوية والحقيقة العرفية تؤيده لكثرة شيوعه؛ ولأن أعمال العباد أعراض قد فنيت ولو بقيت لا تقبل الوزن.(٣)

ذهب القشيري إلى أن الله يزن أعمالهم بميزان الإخلاص، وأحوالهم بميزان الصدق. فمن كانت أعمالهم بالرياء مصحوبة لم يقبل أعمالهم، ومن كانت أحوالهم بالإعجاب مشوبة لم يرفع أحوالهم.(٤)

يفهم من تفسير القشيري الإشاري أنه يميل إلى قول مجاهد في تعريف الميزان.

المطلب الثالث: أصحاب الجمع بين القولين

يرى ابن عاشور أن الميزان آلة لها أشكال مختلفة شكلاً واتساعاً، وقد يطلق الوزن على المعاني المعنوية مثل معرفة مقدار الحال في فضل ونحوه كقوله تعالى:"فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً [الْكَهْف: ١٠٥] وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، فِي «الصَّحِيحَيْنِ» :«إِنَّهُ لَيُؤْتَى بِالْعَظِيمِ السَّمِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»

(١) ينظر: الشنقيطي، المصدر نفسه، (٣/ ٧٩)

(٢) ينظر: الفخر الرازي، مصدر سابق، ١٤/ ٢٠٢، ٢٠٣.

(٣) ينظر: أبو السعود ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٣/ ٢١٣.

(٤) ينظر: القشيري، مصدر سابق، ١/ ٥٢٠، ٥٢١.

وقد يستعار الوزن استعارة تمثيلية ليدل على تدبير الأحوال كَقَوْلِ الرَّاعِي:

وَزَنَتْ أُمَيَّةُ أَمْرَهَا فَدَعَتْ لَهُ ... مَنْ لَمْ يَكُنْ غُمِرًا وَلَا مَجْهُولَا

وفي هذه الآية يتعلق الوزن بالأعمال لا بالصحف؛ لأن من الأعمال ما يدخله الصدق ومنها ما يدخله الرياء، مثل الجهاد والعلم والصدقة، ويجوز أن يكون الوزن على الحقيقة، فتوضع الصحائف التي كتبتها الملائكة على شيء خلقه الله ينطق ويتكيف بكيفية ليعطي نتيجة الأعمال، ولكن الأخبار التي وردت في هذا المعنى لا يصح منها شيء.

والعبارات في مثل هذه الأشياء المتعلقة باليوم الآخر قاصرة عن وصفها؛ لأنها من خوارق المتعارف عليه، فالعبارات مقربة للصورة والمعنى فقط. ولهذا اختلف السلف في وجود الميزان، هل هو القضاء السوي كما يرى مجاهد والضحاك والأعمش والمعتزلة وجماعة من الأشاعرة؟ أم هو حقيقي كما يرى الجمهور وجمهور الأشاعرة وجماعة من المعتزلة. ويختم ابن عاشور بقوله"وَالْأَمْرُ هَيِّنٌ، وَالِاسْتِدْلَالُ لَيْسَ بِبَيِّنٍ وَالْمَقْصُودُ الْمَعْنَى وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ آلَتَهُ".(١)

ويذهب أبو زهرة إلى أنه سوف يقلد بعض المفسرين من السلف ومنهم مجاهد والأعمش والضحاك، وأيدهم من المتأخرين أبو السعود في تفسيره والغزالي في كتابه" المضنون به على غير أهله"؛ إذ يرون أن الوزن يوم القيامة ليس هو وزن محسوس، بل ذلك مجاز ليدل على أن كل ذي حق سوف يأخذ حقه بالحق لَا ينقص ولا يزاد عليه شيء إلا أن يكون ذلك من رحمته تعالى وغفرانه.

والمعنى فيه استعارة أو تشبيه قصد بها تشبيه عدالة الله يوم القيامة التي لا ظلم فيها بالميزان الحسي الذي يراه ويستخدمه الناس في حياتهم فتخف الكفة فيه أو تثقل لدقة حكمه.

ويرى أبو زهرة أنه كذلك يقبل الرأي الذي يرى أن كل شيء يوم القيامة على الحقيقة ويجرى على ظاهره ومن ذلك الميزان والصراط وغيرهما؛ لأن المجاز لا يصار إليه إلاَّ إذا تعذرت الحقيقة ، ويوم القيامة لا تتعذر الحقيقة فلا مجال للتأويل، وعلى هذا الرأي أكثر العلماء. (٢)

ويرى المراغي أن الوزن في قوله: چ ڱ ڱ ڱچعمل يراد به معرفة مقدار الشيء بالميزان والقسطاس، وقد يطلق كل من الميزان والقسطاس على العدل كقوله: چ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤچوقوله فى الرسل: چ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀچ. فالجمهور يرون أن هذا الوزن حقيقي له كفتان ولسان ويميل بالأعمال، والحكمة منه إظهار علم الله المحيط

(١) ينظر: ابن عاشور، مصدر سابق، ٨/ ٢٩، ٣٠.

(٢) ينظر: محمد أبو زهرة، مصدر سابق،٥/٢٧٩١.

بأعمال العباد وعدله في جزائهم عليها؛ والحق والصحيح والراجح أن الأعمال هي التي توزن لا الصحائف التي تكتب فيها الأعمال كما يرى القرطبي.(١)

ويرى المراغي أن كل قضايا الإيمان بالغيب الثابتة بنصوص الكتاب والسنة فهي حق لا ريب فيه فنؤمن بها ولا نحكّم رأينا في كيفيتها، فنؤمن بأن في الآخرة وزنا للأعمال بميزان يليق بعالم الآخرة توزن به الأعمال والإيمان والأخلاق، ولا نبحث عن صورته وكيفيته.

وإذا كان العلم الحديث كشف موازين للحر والبرد واتجاه الرياح والأمطار، أفيعجز الله القادر على كل شيء عن وضع موازين للأعمال النفسية والبدنية التي سماها الدين الحسنات والسيئات، بما تحدثه في الأنفس من الأخلاق والصفات الثابتة فيها؟(٢)

ويرى الماتريدي أن أكثر أهل التفسير يرون أن المراد ب" الموازين" الحسنات والسيئات نفسها فهي التي توزن وليس صحائف الأعمال، ولكن ما قالوه لا يحتمل، وكذلك من يرى أنه ميزان له كفتان يوزن فيه الحسنات والسيئات لا يحتمل، فالله أعلم بما أراد بالوزن.(٣)

ويرى السمرقندي أن المعتزلة أخذوا بقول مجاهد، فالأمر على وجه المثل وهو كناية عن التعديل، وقال بعض العلماء: قد ذكر الله تعالى الوزن فنؤمن به ولا نعرف كيفيته.(٤) ؛ ويورد العز بن عبد السلام قول الجمهور وقول مجاهد ولا يرجح. (٥)؛ ويرى النسفي أن الله وحده هو الذي يعلم كيفية الميزان.(٦)

ويرى صاحب المنار أن النصوص التي وردت في الميزان وأن له لسان وكفتان ليست في الصحيحين ولا كتب السنن المعتمدة، وعليه لا يجب الأخذ بقول من ادعى أن أهل السنة أجمعوا على هذا القول، فهي مسألة اختلف فيها السلف والخلف. بل اختلفوا في عدد الموازين وكيفية الوزن، وما هو الذي يوزن هل الصحف؟ أم الأعمال؟ أم الأشخاص؟ وسبب هذا الاختلاف يعود إلى الأسباب الآتية:

- **السبب الأول**: اختلاف الأخبار والآثار عن السلف وأكثرها لا يصح ولا يحتج بمثله في الأحكام العملية فكيف يحتج به في مسائل الاعتقاد؟!.
- **السبب الثاني**: الاختلاف في فهمها.

---

(١) ينظر: المراغي، مصدر سابق،١/ ١٠٦، ١٠٧.
(٢) ينظر: المراغي، مصدر المصدر نفسه، ١/ ١٠٧.
(٣) ينظر: الماتريدي، مصدر سابق، ٤/ ٣٦١.
(٤) ينظر: الليث السمرقندي، مصدر سابق، ١/ ٤٠٥.
(٥) ينظر: العز بن عبد السلام، تفسير القرآن، ١/ ٤٧٥.
(٦) ينظر: النسفي، (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، ١/ ٥٥٦.

- **السبب الثالث**: الرأي والقياس والتخيل مع الفارق، فالخلف من أهل السنة سلكوا نفس منهج المعتزلة في تحكيم الرأي في أمور الغيب؛ إذ قاسوا عالم الغيب على عالم الشهادة، ومنها كيفية الميزان ووزن الأعمال، والصحيح عدم الخوض في معرفة كيفية أمور الآخرة ولا صورتها، فإذا كان البشر لهم قدرة على اقتراع أنواع كثيرة من الموازين فالله لا يعجزه شيء. (١)

الخاتمة

توصل الباحث إلى جملة من النتائج والتوصيات وهي على النحو التالي:

أولاً: النتائج: ويمكن حصرها في التالي:

- تأثر مجاهد بن جبر المكي في تفسيره العقلي لبعض نصوص القرآن الكريم بمدرسة عبد الله بن مسعود التي ختم بها حياته.
- لا يتردد مجاهد من اتخاذ المجاز وسيلة لبيان النص القرآني حتى في مسائل العقيدة، مثل قضية الميزان.

ظلت قضية المسخ من قضايا الاختلاف بين علماء التفسير إلى هذا العصر بناء على ما ذهب إليه مجاهد.

- تبين للباحث بعد بحثه أن الحقائق العلمية ترجح قول الجمهور في مسألة المسخ والميزان، ومع هذا يظل قول مجاهد له حظ من النظر.

ثانياً: التوصيات:

يقدم الباحث التوصيات التالية:

- ضرورة أن يكمل الباحثون مسائل أخرى توضح المنهج العقلي عند السلف ومنها رؤية الله.

يحسن عند الترجيح بين أقوال العلماء عند الاختلاف إدخال المنهج الحسي التجريبي كواحد من أدلة الترجيح.

- يوصي الباحث المتخصصين في علم الحديث أن يتتبعوا المنهج العقلي عند السلف في تفسير أحاديث النبي ε.

(١) ينظر: المنار، مصدر سابق،٨/ ٢٨٦.